موقف أبي الحسن الأخفش
(سعيد بن مسعده - ت ٢١٥هـ)
من القراءات المتواترة في كتابه " معاني القرآن "

إعداد الدكتور / علي بن عبدالله الراجحي

أستاذ اللغويات المساعد
في قسم اللغة العربية - جامعة القصيم

ملخص البحث :

هو بحث يقوم على المنهج الوصفي التحليلي ، فيبين عن موقف الأخفش أبي الحسن (سعيد بن مسعدة ت٢١٥هـ) من القراءات المتواترة في كتابه " معاني القرآن " الرائد في مصادر الدراسات اللغوية القرآنية ، حيث ألفيت للأخفش في هذا الكتاب مواقف متباينة تجاه القراءات القرآنية المتواترة ، من حيث القبول أو الترجيح والمفاضلة ، أو التضعيف ، وربما الرد أحياناً .

وقد افتتح هذا البحث بتعريف موجز عن القراءات ودرجاتها وتاريخها ، والفرق بينها وبين القرآن، ثم ختم ببيان أهمية القراءات المتواترة في الدرس اللغوي، وما ينبغي أي يكون عليه من يتصدى لدراسة القراءات المتواترة .

مقدمـــة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبدالله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد :

فهذا بحث أسلط الضوء فيه على موقف عالم لغوي كبير هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (ت٢١٥هـ) من القراءات القرآنية المتواترة ، حيث اتضح لي أن له موقفين متباينين : موقف الاستشهاد والاحتجاج بها والذّبّ عنها ، وموقف تضعيفها ، أو ردها ، بل الطعن فيها ، وفي ناقليها من الأئمة القرّاء ، وموقف ثالث بينهما : وهو المفاضلة والترجيح بينها .

وقد انعقد هذا البحث حول القراءات القرآنية المتواترة وموقفه منها دون دراسة مواقفه الأخرى من غير المتواترة ، حيث دقة دلالة هذا المصطلح وأهميته ، وذلك لقيمة القراءات المتواترة ، وعظيم قدرها ؛ إذ لا يجوز إنكارها أو النيل منها، ولا يعذر مضعفها ؛ لأن إجماع الأمة قد انعقد عليها ، وتأتّى من قبلها .

وقد اقتضى البحث أن يقوم على مبحثين وخاتمة :

المبحث الأول : في إعطاء نبذة يسيرة عن تعريف القراءات والقرآن وبيان العلاقة بينهما ، وشروطها ، والفوائد المترتبة على تعددها ، ومراحل التأليف فيها.

المبحث الثاني : في بيان مواقف الأخفش من القراءات المتواترة ، وذلك من خلال كتابه القيم " معاني القرآن " .

ثم ختم البحث بالنتيجة التي انتهى إليها الباحث ، والأسس التي ينبغي أن يرتكز عليها توجيه القراءات ، وكذا من يتصدّى لدراستها أو تعليلها ، والله وحده المستعان ، وعليه التكلان .

المبحث الأول

في تعريف القراءات . ودرجاتها وشروطها وفوائد تعددها . وحركة التأليف فيها .

١- تعريف القرآن :

" هو كلام الله تعالى المنزل على رسوله ﷺ المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهه " هذا هو تعريف البزدوي [١] .

وقال ابن الحاجب هو " الكلام المنزّل للإعجاز بسورة منه " [٢] ، وأورد الإمام الشوكاني تعريفات عدة مع بعض الاعتراضات عليها ، ثم قال : والأولى أن يقال : " هو كلام الله المنزل على محمد المتلوّ المتواتر " [٣] .

وكلها ذات دلالات متقاربة تحمل المعنى نفسه .

٢- تعريف القراءات :

في اللغة : جمع قراءة ، وهي مصدر قرأ ، يقال : قرأ فلان قراءة وقرآناً ، بمعنى : تلا ، فهو قارئ ، وجمع القارئ : قَرَأَة ، وقُرّاء [٤] .

وأما في الاصطلاح : فهي – كما يقول الزركشي – : " اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفية نطقها من تخفيف وتثقيل، وغيرها"[٥].

---

(١) كشف الأسرار عن أصول البزدوي ٢١/١ .

(٢) مختصر المنتهى الأصولي ١٨/٢ .

(٣) إرشاد الفحول ٣٠ .

(٤) ينظر : اللسان ، والقاموس ، والصحاح ، مادة قرأ .

(٥) البرهان في علوم القرآن ٣١٨/١ ، وقريب من هذا التعريف ينظر : منجد المقرئين ص٣ ، ولطائف الإشارات ١٧٠/١ ، والبدور الزاهرة ص٧ .

٣- العلاقة بين القرآن والقراءات :

يورد القراء في كتبهم تقسيماً للقراءات يوحي بتفريقهم بينها وبين القرآن الكريم ، فهم يذكرون من أقسامها المتواتر والمشهور والشاذ والموضوع[١].

والقرآن – كما هو معلوم – لا يكون إلا متواتراً ، ولا يكون غير ذلك من تلك الصفات الأخرى فهما – كما يقول الزركشي – حقيقتان متغايرتان [٢].

وإن كان حكم – الزركشي– هذا ليس على إطلاقه ، أو ليس دقيقاً لكون القرآن والقراءة – كما يذهب البعض – لفظين مترادفين ، ولدلالة حديث " أنزل القرآن على سبعة أحرف " [٣] أن هذه القراءات منزلة [٤].

والذي يظهر – والله أعلم – إن إطلاق القول بالتغاير والتماثل غير صحيح؛ لوصف بعضه بأنه قراءة وقرآن ، وآخر بأنه قرآن ، وثالث بأنه قراءة.

وها هو الإمام الشوكاني يضع أيدينا على تلك الضوابط التي تحدد العلاقة بين القرآن والقراءة فيقول : " والحاصل أن ما اشتمل عليه المصحف الشريف واتفق عليه القراء المشهورون فهو قرآن ، وما اختلفوا فيه : فإن احتمل رسم المصحف قراءة كل واحد من المختلفين مع مطابقتها للوجه الإعرابي ، والمعنى العربي فهي قرآن كلها ، وإن احتمل بعضها دون بعض : فإن صح إسناد ما لم يحتمله ، وكانت موافقة للوجه الإعرابي ، والمعنى العربي فهي الشاذة ، ولها حكم أخبار الآحاد في الدلالة على مدلولها ، وسواء كانت من

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/٧٧ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/٣١٨ .

(٣) ينظر في روايات الحديث وتخريجاته : جامع البيان (المقدمة) ، والإتقان ١/٤٦-٥١ ، وهو في صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ٦/٢٢٨ ، وصحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٦٠ .

(٤) ينظر : القراءات وأثرها في علوم العربية ١/١٠ ، ١١ .

القراءات السبع أو من غيرها .

وأما ما لم يصح إسناده مما لم يحتمله الرسم فليس بقرآن ولا منزل منزلة أخبار الآحاد ، أما انتفاء كونه قرآناً فظاهر ، وأما انتفاء تنزيله منزلة أخبار الآحاد فلعدم صحة إسناده ، وإن وافق المعنى العربي والوجه الإعرابي فلا اعتبار بمجرد الموافقة مع عدم صحة الإسناد [١] .

فهذه التفصيلات والضوابط تجعل في الأمر سعة يقبل معها الخلاف ، فقد يجيز أقوام قراءة لموافقتها -عندهم- وجهاً من العربية ، ويردها آخرون لتضييقهم تلك الوجوه ، وهكذا ... .

٤- شروط القراءات الصحيحة والفوائد المترتبة على تنوعها :

أ- شروطها :

يقول الإمام أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) - عما يقبل من القراءات ، وما لا يقبل-: " فإن سأل سائل فقال : فما الذي يقبل من القراءات الآن فيقرأ به، وما الذي لا يقبل ولا يقرأ به، وما الذي يقبل ولا يقرأ به ؟

فالجواب : أن جميع ما روي من القراءات على ثلاثة أقسام : قسم يقرأ به اليوم وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال وهي : أن ينقل عن الثقات إلى النبي ﷺ ويكون في وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعاً ، ويكون موافقاً لخط المصحف ، فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث قرئ وقطع على مُغَيبه وصحته وصدقه ؛ لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقته لخط المصحف ، وكفر من جحده.

والقسم الثاني: ما صح نقله عن الآحاد، وصح وجهه في العربية، خالف

---

(١) إرشاد الفحول ص٣٠ ، ٣١ .

لفظه خط المصحف ، فهذا يقبل ، ولا يقرأ به لعلتين :

إحداهما: أنه لم يوجد إجماع إنما أخذ بأخبار الآحاد ، ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد.

والعلة الثانية : أنه مخالف لما قد أجمع عليه ، فلا يقطع على مغيبه وصحته ، وما لم يقطع على صحته لا تجوز القراءة به ، ولا يكفر من جحده ، وبئسما صنع إذ جحده.

والقسم الثالث: هو ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية، فهذا لا يقبل، وإن وافق خط المصحف " (١).

والمقبول منها في القسم الأول عنده هي- كما يقول أبو شامة (ت٦٦٥هـ)-: " كل قراءة اشتهرت بعد صحة إسنادها، وموافقتها خط المصحف، ولم تنكر من جهة العربية فهي القراءة المعتمد عليها، وما عدا ذلك فهو داخل في حيز الشاذ والضعيف، وبعض ذلك أقوى من بعض"(٢).

والتواتر فيها -كما يقول الصفاقسي (ت١١١٧هـ): " شرط في صحة القراءة ، و لا تثبت بالسند الصحيح غير المتواتر ، ولو وافقت رسم المصاحف العثمانية والعربية ... " (٣) .

وعلى هذا النحو نجد في أجوبة أولئك العلماء شيئاً من التباين أو الاختلاف، وقد رأيت قولاً للعلامة طاهر الجزائري الدمشقي (ت١٣٣٨هـ) يستجمع فيه تلك الآراء ويتوسط بينها ، فيقول : " الأقرب إلى السداد أن يقال : إن القراءات السبع متواترة في الجملة ، ويوجد فيها المشهور والمروي من طريق الآحاد المحفوفة بالقرائن المفيدة للعلم .

---

(١) الإبانة عن معاني القراءات ص٣٩-٤٠ .

(٢) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب الوجيز ص ١٧٨ .

(٣) غيث النفع في القراءات السبع ص ٦- ٧ .

وأما المروي من طريق الآحاد المحضة فهو فيها نزر لا يكاد يذكر ، وهو ما طعن فيه بعض الأئمة ، ولم يكن عنه جواب سديد " [١] .

وهذا القول من الجزائري هو ما يحمل عليه كلام السابقين عند تدبره وإمعان النظر فيه .

ب- آثارها وفوائدها :

لتنوع القراءات آثار وفوائد جمة تتصل بالأحكام الشرعية والفقهية ، واللغوية ، وإقامة الحجج والبراهين على حفظ كتاب الله من التحريف والتغيير ، وبيان فضل هذه الأمة باعتنائها بنقل القرآن بقراءات على وجه التواتر ، ولعل من أهمها مما قام عليه هذا البحث ما تركتها هذه القراءات من آثار في تطور الفكر اللغوي ، لاسيما بعد اعتقاد اللغويين بصحة تلك القراءات وتواترها حيث كان عاملاً مهماً في تغيير نظرتهم تجاه ما قاله النحاة واللغويين الأوائل إزاء تلك القراءات في تقعيدهم وتأصيلهم وأقيستهم ، وعلى رأس ذلك مصطلحات الأصول كالقلة والكثرة والشذوذ والندرة ونحوها ؛ لأنها التي كان تأثرها بالقراءات بيناً ، بل إيجابياً .

وفيها من توسيع الله على عباده ، ورفع الحرج عنهم ؛ إذ كانت لغات العرب مختلفة، وقد لا يستطيع صاحب اللغة التحول عن لغته إلا بعد كلفة ومشقة.

٥- التأليف في القراءات :

قد ذُكر أن أقدم من ألف في القراءات هو يحيى بن يعمر العدواني (ت١٢٩هـ) [٢] ، حيث جمع ما روي من اختلاف الناس فيما وافق الخط [٣].

---

(١) التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ص ١٤٤ .

(٢) ينظر : تاريخ العلماء النحويين ص١٥٦ ، وإنباه الرواة ٢١/٤ .

(٣) تاريخ التراث ١٤٧/١ .

ثم جاء أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) وألف كتاباً وصف بأنه جيد، ليس لأحد من الكوفيين قبله مثله [١] ، ذكر ابن الجزري أنه ضمنه قراءة خمسة وعشرين قارئاً [٢] .

ثم تلاهما كتاب أبي حاتم السجستاني(ت٢٢٥هـ) وهو من الكتب التي يفتخر بها أهل البصرة – كما ذكر ذلك الفيروز آبادي – بقوله : " ولأهل البصرة أربعة كتب يفتخرون بها على أهل الأرض كتاب (العين) للخليل، و(كتاب سيبويه) ، وكتاب (الحيوان) للجاحظ ، وكتاب أبي حاتم في القراءات" [٣] .

ثم ألف أحمد بن جبير الكوفي (ت٢٥٨هـ) كتاباً في القراءات الثمان : قراءات الأئمة السبعة ، وقراءة يعقوب [٤] .

وتبعهم القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي (ت٢٨٢هـ) بكتاب جمع فيه قراءة عشرين قارئاً .

وكذا الإمام الطبري (ت٣١٠هـ) ألف كتاباً جمع فيه نيفاً وعشرين قراءة[٥].

ثم توجها ابن مجاهد (ت٣٢٤هـ) بكتابه (السبعة) الذي كتب الله له ذيوع الصيت والقبول .

---

(١) تاريخ بغداد ٤٠٥/١٢ ، وإنباه الرواة ١٥/٣ .
(٢) النشر ٣٣/١ .
(٣) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ص١٠٩ ، ١١٠ .
(٤) الإبانة ص٥١ .
(٥) النشر ٣٣/١ .

المبحث الثاني

شروط القراءات المتواترة عند الأخفش . وموقفه منها .

أولاً : شروطها :

إنّ من يستقرئ كتاب " معاني القرآن " للأخفش ، وما أورده فيه من قراءات يترجح لديه أنه من أوائل من حدّد شروط قبول القراءة ؛ بل قد يكون أولهم حسب علمي ، وهي الشروط الثلاثة سالفة الذكر ، وربما هي عنده أربعة ، نوردها حسب تقديمه لها ، وأهميتها عنده [١] :

١- ثبوت القراءة بالأكثرية .

وهذا الشرط يُعبّر عنه بـــ " أخذ أكثر القُرّاء أو العامة منهم لها " ، وهو ما يقابل عند المتأخرين بمفهومه شرط ثبوت السند .

ولقد ترددت هذه العبارة ونحوها كثيراً بما يؤكد اعتداده بهذا الشرط والقول به ؛ كقوله - مثلاً - : " والطَّيف " [٢] أكثر في كلام العرب ..... ونقرؤها (طائف) [٣] ؛ لأن عامة القُرّاء عليها " [٤] ، فقدّم ما كان عليه الأكثر من القُرّاء، على ما كان فاشياً وكثيراً في العربية .

وقوله : " وذلك أن العرب تحوّل الشيء من الهمزة حتى يصير كبنات

---

(١) وقد أشار إليها الدكتور / عبد الأمير الورد في مقدمة تحقيقه للكتاب .

(٢) الأعراف : ٢٠١ من قوله تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ .

(٣) القراءة بـــ " طيف " لأبي عمرو ، وابن كثير ، والكسائي ، والقراءة بـــ " طائف " لنافع ، وعاصم ،و ابن عامر ، وحمزة .
ينظر : السبعة ص ٣٠١ ، والكشف ٤٨٦/١ ، والتيسير ص١١٥ .

(٤) معاني القرآن ٥٤٠/٢ .

الياء يجتمعون على ترك الهمزة نحو " المِنْسَأة " ، ولا يكاد أحد يهمزها إلا في القرآن ؛ فإن أكثرهم قرأها بالهمز ؛ وبها نقرأ " [١] .

وكذلك قوله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [٢]، وقد طرح بعضهم التنوين [٣] ، وذلك رديء ؛ لأنه إنما يترك التنوين إذا كان الاسم يستغني عن الابن ، وكان ينسب إلى اسم معروف . فالاسم هاهنا لا يستغني . ولو قلت : (وقالت اليهود عُزَيرُ) لم يتم كلاماً إلا أنه قد قريء وكثر ، وبه نقرأ على الحكاية .... " [٤].

٢- رسم المصحف :

وهو الظابط الذي لا يقل أهمية - عند الأخفش - عن سابقه ؛ بل ربما كان موازياً له ؛ وذلك نحو قوله : (الصراط) فيه لغتان [٥] السين والصاد ، إلا أنا نختار الصاد [٦] ؛ لأن كتابها على ذلك في جميع القرآن " [٧] .

---

(١) معاني القرآن ٢٧٤/١ .

(٢) التوبة : ٣٠ .

(٣) قرأ بالتنوين : عاصم والكسائي ، وقرأ بلا تنوين : ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة .
ينظر : السبعة ص٣١٣ ، الكشف ٥٠١/١ ، التيسير ص١١٨ ، والطبري ٢٠٤/١٤ ، والجامع ١١٦/٨ ، والبحر ٣١/٥ .

(٤) معاني القرآن ٥٥٣/٢ .

(٥) عامة العرب بالسين ، قريش بالصاد . ينظر : اللسان (سرط) .

(٦) قرأ بالسين : ابن كثير ، وأبو عمرو ، وغيرهم بالصاد .
ينظر : السبعة ص١٠٥ ، التيسير ص١٨ ، حجة الفارسي ٣٧/١ .

(٧) معاني القرآن ١٦٥/١ .

وقوله:﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾[١] كتابها بالألف في المصحف..."[٢].

وقوله : وقال بعضهم ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ ﴾ [٣] وهو القياس ، ولكن الكتاب ليست فيه ياء ؛ فلذلك كره هذا " [٤] . ونحو ذلك من العبارات [٥] .

٣- ما وافق منها وجهاً من العربية .

وقد علَّل بهذا الشرط قراءات كثيرة ؛ بلا حصر لها ، وإن لم يكن هذا الشرط مُقدّماً عنده كتقديم الشرطين السابقين ؛ لأننا رأيناه فيما تقدم يُقدم القراءة الموافقة لرسم المصحف ، والتي تواترت القراءة بها وإن وافقت القليل من كلام العرب .

ومن أمثلة تعليله بعض القراءات بهذا الشرط ما جاء في قوله :

" وبعض العرب يقول : ﴿ الحمدَ لله ﴾ [٦] فينصب على المصدر ، وذلك أنّ أصل الكلام عنده على قوله (حمداً لله) يجعله بدلاً من اللفظ بالفعل ... وقد قال بعض العرب ﴿الحمدِ لله ﴾ [٧] فكسره ؛ وذلك أنه جعله بمنزلة الأسماء التي ليست بمتمكّنه ، وذلك أنّ الأسماء التي ليست بمتمكّنه تحرّك أواخرها حركة

---

(١) هود : ٦٨ .

(٢) معاني القرآن ٥٧٨/٢ .

(٣) طه : ٩٤ .

(٤) معاني القرآن ٥٣٣/٢ .

(٥) ينظر – مثلاً – ٢٢٧/١ ، ٢٤٠ ، ٣٣٤ ، ٣٧٢ ، ٤٩٩/٢ ، ٥٣٣ ، ٥٧٨ .

(٦) وهي قراءة رؤبة، وسفيان بن عيينة ، وهارون العتكي . ينظر : الشواذ : ١ ، والجامع ١٣٥/١، والبحر ١٨/١، وفي معاني القرآن للفراء ٣/١ نسبها إلى أهل البدو .

(٧) وهي قراءة الحسن ورؤبة. ينظر : الشواذ: ١ ، والمحتسب ٣٧/١ ، والإبانة ص٧٥ ، ونسبها الفراء في معانيه ٣/١ إلى أهل البدو .

واحدة لا تزول علتها .... فشبهوا (الحمدَ) وهو اسم متمكّن في هذه اللغة بهذه الأسماء التي ليست بمتمكّنه ..... " [١] .

وفي قوله - أيضاً - :"وقال ﴿ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا ﴾ [٢] يكسر الشين بنو تميم [٣] ، وأما أهل الحجاز فيسكنون ..... " [٤] .

وقوله : " فكرّر الفعل وقد يستغنى بأحدهما ، وهذا على لغة الذين قالوا : ضربت زيداً ضربته ، وهو توكيد ..... " [٥] . وهكذا في مواضع كثيرة [٦] .

٤- موافقتها لسنن العرب في كلامهم وأساليبهم .

وهذا الشرط يستوحى من بعض عباراته التي تفيد ذلك - كما يشير إلى ذلك محقق الكتاب [٧] - فلابد عند الأخفش من موافقة القراءة لطرائق العرب ، وإلا فإنها لا تكون ، أو لا يقرأ بها .

ومن أمثلة ذلك قوله : " وقال بعضهم : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [٨] يؤنثها ولم ينونها ، وهذا لا يكاد يكون ؛ لأن (الحسنى) لا يتكلم بها إلا بالألف

---

(١) معاني القرآن ١/١٥٦-١٥٧ .

(٢) البقرة : ٦٠ .

(٣) ينظر في هذه القراءة واللغة : الشواذ : ٥ ، والجامع ١/٤٢٠ ، والبحر ١/٢٢٩ ، والمحتسب ٨٥ ، ولهجة تميم ١٧٣ .

(٤) معاني القرآن ١/٢٧١ .

(٥) المصدر نفسه ٢/٥٨٧ .

(٦) ينظر - مثلاً - : ١/١٦٧ ، ٢٣٥ ، ٢٨٤ ، ٤١٩ ، ٢/٦٣٠ ، ٦٥٢ .

(٧) في مقدمته للكتاب ١/٧٣ .

(٨) البقرة : ٨٣ ، وينظر في هذه القراءة : إعراب القرآن ١/٦٠ ، والمحتسب ٢/٣٦٣ وهي من الشواذ .

واللام ، كما لا يتكلم بتذكيرها إلا بالألف واللام ..... " [١] .

وقوله : " وقال بعضهم ﴿ مَيْسُرِهِ ﴾ [٢] وليست بجائزة ؛ لأنه ليس في الكلام (مَفْعُل) ... " [٣] .

وبهذه الضوابط والشورط التي ذكرها بصريح العبارات يتبين أن للأخفش السَّبق ، واليد الطولى في تحديد معالم شروط القراءات المقبولة لديه ، ولدى من جاء بعده من علماء القراءات واللغة الذين بنوا تعليلاتهم ، وأصول توجيه القراءات على تلك الأسس التي صارت تعرف فيما بعد بشروط قبول القراءة ، وعليه فإنني أقول _ وبكلّ ثقة – إن الأخفش هو أوّل من أسس لهذه الشروط ، وحدّد معالمها ، وليس ابن خالويه كما يقول أحد الباحثين [٤] ؛ لتقدم حياة الأخفش على حياة ابن خالويه ، فقد كانت وفاته سنة (٢١٥هـ) ووفاة ابن خالويه سنة (٣٧٠هـ) ؛ فبين عصريهما أكثر من قرن ؛ فنكون بهذا قد وضعنا أيدينا على الحلقة الأولى من حلقات هذا العلم وتاريخه .

ثانياً : موقف الأخفش من القراءات المتواترة :

إذا كانت تلك هي الشروط – لدى الأخفش – في القراءة المقبولة التي يقرأ بها ؛ فإلى أيّ مستوى كان تطبيقه له ؟ ، وما موقفه الحقيقي منها ؟ ! .

إن المستقرئ لكتابه " معاني القرآن " في جانب تناوله للقراءات عامّة ، والمتواتر خاصّة ؛ ليتبيّن له مواقف منها ثلاثة :

---

(١) معاني القرآن ٣٠٩/١ .

(٢) البقرة : ٢٨٠ ، وهي من الشواذ كما في : المحتسب ص١٤٣ ، والبحر ٣٤٠/٢ ، والكشاف ٣٢٣/١ ، وإملاء ما من به الرحمن ١١٧/١ .

(٣) معاني القرآن ٣٨٩/١ .

(٤) هو الدكتور : عبدالهادي الفضلي في كتابه : القراءات القرآنية تاريخ وتعريف ص١٠٩، ١١٠ .

أحدها : الاعتداد بالقراءة المتواترة والاستشهاد بها .

الثاني : ترجيح بعضها على بعض .

الثالث : تضعيفها ، وربما تخطئتها وردّها .

ومن الأمثلة على هذه المواقف :

الموقف الأول : الاعتداد بالقراءة المتواترة ، والاستشهاد بها .

فنراه يورد القراءة المتواترة ، ويوجهها توجيهاً يوحي بقبولها ، والقراءة بها ؛ إما بذكرها دون ذكر القراءات الأخرى ، أو بذكرها مع غيرها مع إشعار بتساويها والأخذ بها جميعاً دون تفضيل بعضها على بعض . من ذلك :

قوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [١] ، قال : " وقال بعضهم (والرِّجْز) [٢]، وذكروا أن (الرُّجْز) [٣] صنم كانوا يعبدونه ، فأما (الرِّجْز) فهو : الرِّجْس . والرِّجْس : النَّجَس ... والنَّجَس : القَذَر " [٤].

فهو يذكرها – هنا – على سبيل قبولها بالتساوي ، ويعلل لكل واحدة منها بما يوحي بجواز القراءة بأيّهما على حدٍّ سواء ، وقد رأيت من جاء بعد الأخفش قد وافقه على هذا [٥] .

---

(١) المدثر : ٥ .

(٢) قرأ حفص ، والمفضّل عن عاصم ، ويعقوب بضم الراء ، وقرأ الباقون بكسرها . ينظر : السبعة ص٦٥٩ ، والتيسير ص٢١٦ ، والمبهج ص٨٥٥ .

(٣) الرِّجز : العذاب بلغة هذيل ، والرجز العذاب بلغة بلي . والضم لغة بني الصعدات من تميم ، والكسر لغيرهم . ينظر : الكشف ٣٤٧/٢ ، الإتقان ٩٢/٢ ، ١٠٢ ، والإتحاف ٤٢٧ ، ولغة هذيل ٤٧١ .

(٤) معاني القرآن ٢٧١/١ .

(٥) كالفراء في معانيه ٢٠١/٢ ، والزجاج في معانيه ٢٤٥/٥، والأزهري في تهذيبه (رج ز) ٦١٠/١٠ .

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ (١) ، قال : " وقال بعضهم : (يُغَلَّ) (٢) وكلّ صواب -والله أعلم-؛ لأن المعنى : أن يخون ، أو يُخان " (٣) .

ومنه كذلك : قوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ ﴾ (٤) ، قال : " لأنه ذكر الرجل حين قال ﴿ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ ﴾ ، وقال بعضهم : (يوصي)(٥) وكلّ حسن ..... " (٦) .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ (٧) ، قال : " إذا جُعلت من (أجريت) و (أرْسيت) (٨) ، وقال

---

(١) آل عمران : ١٦١ .

(٢) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم بفتح الياء وضم الغين ، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الغين .
ينظر : السبعة ص٢١٨ ، والتيسير ص٩١ ، والكشف ٣٦٣/١ ، والمبهج ص٤١١ .

(٣) معاني القرآن ٤٢٧/١، وانظر : معاني القرآن للفرّاء ٢٤٦/١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج ٤٩٩/١، والبحر ١٠١/٣ ، والجامع ٢٥٥/٤ .

(٤) النساء: ١١ .

(٥) قرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر بفتح الصاد،وقرأ الباقون بكسرها.
ينظر : السبعة ٢٢٨ ، والتيسير ص٩٤ ، والمبهج ص٤٢١ .

(٦) معاني القرآن ٤٣٨/١ . وانظر : الطبري ٤٧/٨ ،والكشف ٣٨٠/١ ، والجامع ٧٣/٥ ، والبحر ١٨٦/٣ .

(٧) هود : ٤١ .

(٨) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم في رواية بضم الميم الأولى ، وقرأ الجميع بضم الميم الثانية ، وقرأ بفتح الميم الأولى حفص والكسائي . ينظر : السبعة ص٣٣٣ ،والتيسير ص١٢٤ ، والكشف ٥٢٨/١ .

بعضهم : (مَجْراها ومَرْساها) إذا جعلت من (جَرَيت) وقال بعضهم : (مُجْرِيها ومُرْسِيها) ؛ لأنه أراد أن يجعل ذلك صفة لله عز وجل " (١) .

وهكذا - في مواضع متعددة - كانت تتساوى عنده وجوه القراءات المتواترة ؛ إما بوصفها بالحسن ، أو الصواب كما مرّ ، أو التعليل لها جميعاً دون تفضيل بعضها على بعض ؛ فهي - وغيرها - تمثل اختيار الأخفش بما يتوافق مع ضوابط القراءة المقبولة وشروطها عنده ، وبما كان ينبغي أن يكون تجاه القراءات المشهورة والمتواترة ؛ إلا أن هذه النماذج - وغيرها - (٢) لا تمثّل إلا موقفاً من مواقف الأخفش المختلفة تجاه هذا النوع من القراءات على وجه الخصوص ، وستتبين مواقفه الأخرى منها في الموقفين التاليين .

الموقف الثاني: تفضيل إحدى القراءات المتواترة وترجيحها على غيرها.

وذلك حين يورد جملة من القراءات المتواترة في الموضع الواحد ، ثم يعلّل لكلّ واحدة منها ، ثم يختار منها أقربها - في نظره - وجهاً إلى العربية ، وأبعدها عن التأويل ، وأصحها رواية عنده دون أن يخطّيء الأخريات ، أو يشنّع عليها ، وأكثر ما رأيناه يميل إليها من القراءات المتواترة ، أو يفضلها ما كان منها عليه السّواد الأعظم من القُرّاء ، أو ما توافق مع رسم المصحف كما أشرنا إلى ذلك في مبحث شروط القراءة عنده ، وهذا الترجيح يعبّر عنه بعبارات مختلفة ؛ كقوله: " والأولى هي الأصل" (٣)، وقوله: " فهو أجود وهي قراءة " (٤)

---

(١) معاني القرآن ٥٧٧/٢ . وانظر : معاني القرآن للفرّاء ١٤/٢ ، والطبري ٤٤/١٢ ، والبحر ٢٢٥/٥ .

(٢) ينظر - للاستزادة - معاني القرآن ٤٤٧/١ ، ٤٥٢ ، ٥٧٧/٢ ، ٥٧٨ .

(٣) معاني القرآن ٢١٥/١ .

(٤) نفسه ٢٢٧/١ .

وقوله : " والتضعيف القراءة الجيدة وبها نقرأ " (١) .

وقوله : " فأنت فيه أيضاً بالخيار إلا أن أحسنه في هذا الحذف ، وبها نقرأ " (٢) .

وكلّ ما يدل من العبارات على الترجيح والاختيار فإنه يستعمله .

وللإيضاح نورد بعض النماذج ، ومنها حديثه عن القراءات في (يذرهم) من قوله تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ ﴾ (٣) من حيث الرفع أو الجزم (٤) ؛ فقال : " ..... فجزم (يذرْهم) على أنه عطف على موضع الفاء ؛ لأن موضعها يُجزم إذا كانت جواب المجازاة ، ومن رفعها على أن يعطفها على ما بعد الفاء فهو أجود ، وهي قراءة " (٥) .

وكذلك ما أورده من القراءات في كلمة (فأزلّهما) من قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ (٦) ، قال : " والتضعيف القراءة الجيِّدة (٧) ، وبها نقرأ.

---

(١) نفسه ٢٣٢/١ .

(٢) معاني القرآن ٢٣٨/١ .

(٣) الأعراف : ١٨٦ .

(٤) قرأ بالرفع أبو عمرو ، وعاصم ، ويعقوب ، وقرأ بالجزم حمزة ، والكسائي . ينظر : السبعة ص٢٩٨ ، ٢٩٩ ، والتيسير ص١١٥ ، والمبهج ص٥٠١ .

(٥) معاني القرآن ٢٢٧/١ ، وانظر في هذا التعليل ونحوه : معاني القرآن وإعرابه للزجّاج ٤٣٤/٢ ، والكشف ٤٨٥/١ ، وعلل القراءات ٢٣٧/١ ، وحجة ابن خالويه ١٤٣ ، والبحر ٤٣٣/٤ .

(٦) البقرة : ٣٦ .

(٧) سائر القرّاء قرءوا بالتشديد ، وبغير ألف ، وقرأ حمزة وحده بألف مع التخفيف . ينظر : السبعة ص١٥٤ ، والتيسير ص٧٤ ، والمبهج ص٣٣٣ .

وقال بعضهم : (فأزَالَهُما) أخذها من : زال ، يزول . تقول : زال الرجل، وأزاله فلان " [١] .

وهذه القراءة التي رجَّحها ، واختار القراءة بها هي قراءة الجماعة ، ولكلتا القراءتين وجه من العربية صحيح ، وهي متوافقة وضوابط القراءة عنده ، إلا أنه اختار الأولى لكثرة من قرأ بها من القُرّاء المعتبرين – والله أعلم – وهو أكثر الشروط حظوةً لديه .

ففي هذين المثالين – ونحوهما – تمثّل اختيار الأخفش بما يتوافق مع شرطي القراءة المقبولة لديه ، وهما : كثرة من يقرأ بها وصحتها كما في المثال الثاني ، وجودتها في العربية كما في المثال الأول .

وأمّا ما يختاره لما يتوافق مع ظابطيه الأخيرين ، وهما : موافقتها لرسم المصحف ، وتوافقها مع أساليب كلام العرب ؛ فمنها :

كلامه عن القراءات فيما ختم من الآيات بكسر ، أو ياء [٢] ، فمن العرب من يحذف الياء ويجتزئ بالكسرة ، ومنهم من يثبتها ، وقد ذكر الأخفش أنّ حذفها في السكوت والوصل قليل ؛ بل قبيح ، واستثنى من هذا القُبح ما كان في رؤوس الآي عند الوقف – رغم قلته – وضعفه – وعلّته – كما قال – " وهي قراءة العامة ، وبها نقرأ ؛ لأن الكتاب عليها ..... وقد سكت قوم بالياء ، ووصلوا بالياء ، وذلك على خلاف الكتاب ؛ لأن الكتاب ليست فيه ياء ، وهي

---

(١) معاني القرآن ٢٣٢/١-٢٣٣ .
وانظر في تعليلها : معاني الزجاج ٨٣/١ ، وحجة ابن خالويه ص٥١ ، والكشاف ١٢٨/١ ، والتهذيب (زلل) ١٦٤/١٣ .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝ ﴾ ص : ٨ ، وقوله :﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ۝ ﴾ البقرة : ٤١ .

اللغة الجيدة " [١] .

أرأيت كيف اختار اللغة القلية، وجعلها قراءته رغم وصفه الأخرى بالجيدة، وما ذلك إلا لأنها - أي الأولى - توافق رسم المصحف ، والأخرى تخالفه ؟ ! .

ومنها ما أورده من قراءات في كلمة (دَرَسْتَ) من قوله تعالى : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ [٢].

قال : " ... أي : دَارَسْتَ أهل الكتاب ... وقال بعضهم : (دَرَسْتَ)[٣] ، وبها نقرأ ؛ لأنها أوفق للكتاب " [٤] .

هذا فيما وافق رسم المصحف ، وهو كثير [٥] ، وأمّا ما توافق وأساليب العرب في كلامهم فمنه ما ذكره من قراءات (حُسْناً) من قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [٦] ، قال : " وقد قرأها بعضهم (حَسَنا) [٧]...وقال بعضهم: ﴿ قولوا للناس حُسْنَى ﴾ يؤنّثها ، ولم ينونها ، وهذا لا يكاد يكون ؛ لأن

---

(١) معاني القرآن ٢٤٠/١ .

(٢) الأنعام : ١٠٥ .

(٣) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بألف ، وقرأ الباقون بغير ألف . ينظر : السبعة ص٢٦٤ ، والتيسير ص ١٠٥، والمبهج ص٤٧٠ .

(٤) معاني القرآن ٤٩٩/٢ . وانظر في تعليلها : معاني القرآن للفرّاء ٣٤٩/١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٨٨/٣ ، والتهذيب (درس) ٣٥٨/١٢ ، والبحر ١٩٧/٤ .

(٥) ينظر - للاستزادة - : ١٦٥/١ ، ٢٢٧ ، ٣٣٦ ، ٣٧٢ ، ٥٣٤/٢ ، ٥٧٨ ، ٦٢٥ .

(٦) البقرة : ٨٣ .

(٧) قرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب بفتح الحاء والسين، وقرأ الباقون بضم الحاء وسكون السين .
ينظر : السبعة ص١٦٣ ، والتيسير ص٧٤ ، والمبهج ص ٣٤٤ .

(الحُسْنَى) لا يتكلم بها إلا بالألف واللام ، كما لا يتكلم بتذكيرها إلا بالألف واللام ؛ فلو قلت : جاءني أحْسَنُ وأطول ، لم يحسن حتى تقول : جاءني الأحسن والأطول ؛ فكذلك هذا يقول : جاءتني الحُسْنَى والطُّولى ..... " [١] .

وأيضاً ما جاء من قراءات في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [٢] .

قال الأخفش : " وقد قُرئت ﴿ فِديةُ طعامِ مسكينِ ﴾ [٣] وهذا ليس بالجيّد [٤] ؛ إنما الطعام تفسير للفدية ، وليست الفدية بمضافة إلى الطعام ..." [٥] .

إن ما تقدّم من عبارات الأخفش التي توحي بتفضيل قراءة ، أو تحسينها، من نحو قوله : وهي الجيّدة ، أو ليس بالجيّد، أو أحسنه، أو فهو الأجود، أو الأولى، أو ما أشبهها من الألفاظ التي نجدها عنده أو عند غيره من العلماء يمكن أن تُحمل على منطق الترجيح بين ما تساوى في درجته من القراءات المتواترة في محيط ما تؤديه تلك القراءة من المعنى ، أو تبلغه من التواتر ، أو توحي إليه سنن العربية ، ذلكم أن ما تواتر منها من حيث السَّند ، والثبوت متساوية ، بأيّها

---

(١) معاني القرآن ٣٠٩/١ ، وقد نقلت هذه القراءات والآراء في إعراب القرآن للنحاس ٦٠/١ ، والمحتسب ٣٦٣/٢ ، والتهذيب (ح س ن) ٣١٤/٤ ، والجامع ١٦/٢ .

(٢) البقرة : ١٨٤ .

(٣) قرأ نافع ، وابن عامر بالإضافة وخفض الطعام وجمع المساكين ، وقرأ الباقون بالتنوين والرفع والتوحيد .
ينظر : السبعة ص١٧٦ ، والتيسير ص٧٩ ، والمبهج ص٣٦٩ .

(٤) لأنه بمعنى إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظان . وهذا مذهب الكوفيين ، ومنعه البصريون ومنهم المؤلف ، وحملوا أدلة الكوفيين على حذف المضاف ، وإقامة صفته مقامه. انظر: الإنصاف المسألة: ٦٢.

(٥) معاني القرآن ٣٥١/١. وانظر : الطبري ٤٣٨/٣، والكشف ٢٨٢/١ ، والبحر ٣٧/٢ .

يقرأ المسلم فهو موافق للتنزيل ، ومتى ما حُمِلَ فَهْمٌ أو دلالةٌ من تلكم العبارات يخرجها عن ذلكم المحيط فهو مردود جملة وتفصيلاً، فالقراءات مردّها السَّند، وليس الاجتهاد، أو القياس، فهي أصل ، والتعليل، أو الاحتجاج يخدمها، لا يناقضها، أو يردّها .

كما أن اجتهاد العالم بافتراض قراءة حسب ما تجيزه أقيسة اللغة عنده ، أو الذوق اللغوي للعالم ، لا يسوّغ أن تُعدّ مثل هذه الاجتهادات والافتراضات داخلة في مصطلح القراءات المتواترة ؛ فضلاً عن أن تكون قراءة ذات قيمة في هذا الكيان ؛ لأن القراءة ليس فيها مجال للقياس ، أو التخمين ؛ بل هي سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأوّل [١] .

وقد وجدت مثل هذه الافتراضات لدى الأخفش [٢] ، ولا أظنه أراد من ذلك إلا الإفادة منها من حيث اللغة ، وليس الإثبات لها ، أو الإقراء بها ، ومن عباراته في هذا قوله : " ولو قرئت ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [٣] بتثقيل النون كان جيداً ولم أسمعه " [٤] .

وقوله : " وهي حسنة ولم أسمعها من العرب " [٥] .

---

(١) انظر في هذا التأصيل : السبعة ص ٥٠- ٥١ .

(٢) وقد أشار إلى طرف من هذا محقق الكتاب في مقدمة تحقيقه ٧٦/١ .

(٣) الحجر : ٥٤ .

(٤) معاني القرآن ٤٤٤/١ ، وهي قراءة ابن كثير كما في السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ ، ولكنها يبدو لم تبلغ الأخفش ؛ لذلك جاء افتراضه لها ، واحترازه من هذا الافتراض بقوله : ولم أسمعه ، وهذا يدل على ورعه ، ومعرفته بأصول القراءة التي يحكم عليها بهذا ، وتجوز القراءة بها .

(٥) معاني القرآن ٥١٠/٢ .

وقد كان يتحدث عن قراءات (قيِّما) من قوله تعالى:﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ (١).

فذكر قراءة أهل المدينة (قِيماً) بكسر القاف ، وفتح الياء مع التخفيف(٢)، وقال عنها : " وهي حسنة ، ولم أسمعها من العرب ، وهي في معنى المفسَر " (٣) .

الموقف الثالث : إنكاره بعض القراءات المتواترة ، أو تضعيفها .

ربما حكَّم بعض النحاة واللغويين ، ومنهم الأخفش مقاييس اللغة والنحو على بعض القراءات ، وأخضعوها لتلك القواعد والقوانين ، فاجترءوا على شيء من الثابت والمتواتر من القراءات فردّوه ، أو ضعّفوه ، وهذا فيما يبدو جاء من المنهج الذي اعتمده أولئك فطبقوه حتى استحال – ربَّما – إلى قانون تُخضع له جميع المقاييس (٤) ، وليس العكس ، فأدّى بهم إلى الوقوع في مزلق كبير ، وشَرَكٍ خطير ، نتج عنه إنزال أرقى نص عربي وهو القرآن الكريم على تلك القواعد الموضوعة ، والمناهج البشرية المنطقية ، وقد كان الواجب أن يكون العكس بحيث نصحح قواعد العربية ، وشواهدها غير القرآنية وفق ما جاء في كتاب الله وقراءاته الصحيحة .

ولنستعرض بعض هذه المواقف غير الموفقة التي جاءت عند الأخفش ؛

---

(١) الأنعام : ١٦١.

(٢) وهي قراءة متواترة – أيضاً – قرأ بها عاصم ،وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي كما في السبعة ص٢٧٤، والتيسير ص ١٠٨ ، والمبهج ص ٤٨١ ، ولمّا لم تبلغه احترز من عدّها قراءة يقرأ بها بمثل تلك العبارة .

(٣) معاني القرآن ٥١٠/٢ . وانظر : الطبري ٢٨٢/١٢ ، والجامع ١٥٢/٧ ، والبحر ٢٦٢/٤ .

(٤) انظر في هذا المنهج : النحويون والقراءات القرآنية لزهير غازي زاهد – مجلة آداب المستنصرية ، العدد ١٥ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

لنبيّن خلل هذا المنهج الذي كان ينبغي لمثل الإمام الأخفش أن يربأ بكتابه عن مثله .

من ذلك ما جاء من قراءات في قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾ [١]، حيث يقول : " وقد قرأ بعضهم هذه الهمزة بالتخفيف ، فجعلها بين الهمزة وبين الياء [٢] ، وقد زعم قوم أنها تجزم ، ولا أرى ذلك إلا غلطاً منهم ، سمعوا التخفيف فظنّوا أنه مجزوم ، والتخفيف لا يفهم إلا بمشافهة ، ولا يعرف في الكتاب ، ولا يجوز الإسكان ..... " [٣] .

فهذه القراءة التي غلّطها الأخفش ؛ بل حكم عليها بعدم الجواز هي قراءة إمام من أئمة اللغة والقراءات المعتبرين، إمام العربية، والثقة، الثّبت أبي عمرو [٤] أحد من تلقّت الأمة عنهم اللغة والقراءة بالقبول والتسليم .

قال ابن الجزري وهو يترجم لسيبويه : " روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء ... " [٥] .

وهذه القراءة قد طعن فيها كثير من نحاة البصرة : كالمبرد ، والزّجاج ، وحملوا رواتها على الغلط واللّحن [٦] ، وقد دافع عن رواية الإسكان كثير من

---

(١) البقرة : ٥٤ .

(٢) وهي قراءة أبي عمرو كما في السبعة ص ١٥٤ ، وحجة ابن خالويه ص٥٤ ، والتيسير ص٧٣ ، والكشف ٢٤١/١ ، والمبهج ص٣٣٧ ، والمبسوط ص١٤٤ .

(٣) معاني القرآن ٢٦٥/١-٢٦٦ .

(٤) ينظر في ترجمته : معرفة القُرّاء ص٨٣ ، سير أعلام النبلاء ٤٠٧/٦ ، غاية النهاية ٢٨٨/١ ، وفيات الأعيان ٤٦٦/٣ .

(٥) وقد كان اختيار سيبويه أن أبا عمرو يختلس الحركة كما في الكتاب ٢٢/٤ ، قال ابن خالويه في حجته : ٥٥ " حكى سيبويه عن هارون باختلاس الهمزة والحركة " .

(٦) ينظر : معاني القرآن وإعرابه للزّجّاج ٤٣٢/١ ، وعلل القراءات ٤٧/١ .

علماء العربية كابن الجزري [١] ، وأبي حيّان [٢] على أنه إجراء للمنفصل من كلمتين مجرى المتصل كما في كلمة: إبل، وهي لغة أسد، وتميم، وبعض نجد .

ومن شواهد هذا الموقف أيضاً : ما أورده من قراءات في قوله تعالى : ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [٣] ، إذ يقول : " .... وقال أبو عمرو : (فَرُهُنٌ) [٤] وهي قبيحة ؛ لأن فَعْلاً لا يجمع على فُعُل إلا قليلاً شاذاً ..... وهذا شاذ لا يكاد يُعرف .... " [٥] .

هكذا تُخضع القراءة المتواترة لمقاييس اللغة ؛ فتُحسَّن ، أو تُقَبَّح بناءً على ذلك المنهج غير القويم ، دون التفريق بين المتواتر منها ، وغير المتواتر ؛ بله المستعمل في النظام اللغوي المتكامل من مجموع لهجاته ولغاته .

قال الفراء : "فَرُهُن على جمع الرّهان كما قال: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ ﴾ [٦] لجمع الثمار " [٧].

وروي عن يونس أنه قال : الرُّهن والرُّهان واحدٌ عربيتان ، والرُّهُن في

---

(١) ينظر : النشر ٢١٣/٥ .

(٢) ينظر : البحر المحيط ٢٠٧/١ .

(٣) البقرة : ٢٨٣ .

(٤) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بغير ألف ، وقرأ الباقون بألف . ينظر : السبعة ص ١٩٤ ، والتيسير ص٨٥ ، والمبهج ص٣٩٠ .

(٥) معاني القرآن ٣٩١/١- ٣٩٢ .

(٦) الأنعام : ١٤١ .

(٧) معاني القرآن للفرّاء ١٨٨/١ ، وكأنه يريد : جمع الجمع ، وهو غير مطرد عند سيبويه . ينظر الكتاب ٢٠٠/٢ .

الرَّهن أكثر ، والرِّهان في الخيل أكثر [١] .

وقال أبو منصور الأزهري : " من قرأ (فَرُهُن) أراد أن يفصل بين الرِّهان في الخيل ، وبين الرُّهُن : جمع الرَّهن " [٢] .

أفلا تسع هذه المعاني من العربية الفصحى هذه القراءة ؛ لاسيما وهي المتواترة ؛ بدل ردّها ، أو تقبيحها ،و قد جاء ذلك عن الأئمة المعتبرين من المدرستين البصرية والكوفية ، وقرأ بها الأئمة الثقات كأبي عمرو ، وابن كثير ؟ ! إنها المقاييس المقيتة التي رسموها من واقع نظام لغويٍّ محدود فيه القوي من حيث الفصاحة والضعيف ، ثم جاءوا بها لتطبيقها على أرقى نص لغوي وأفصحه ألا وهو القرآن الكريم الذي ربما اختلف بعض نظمه مع بعض تلك المقاييس والقوانين ، فصار العلماء في هذا بين أمرين أحلاهما مرٌّ ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من هذا الخلل المنهجي من غير عمد .

ومن أمثلة ذلك الموقف غير الموفق – كذلك – ما حكم به على بعض قراءات قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [٣] ، حيث قال : " وبلغنا أن الأعمش قال (بمُصْرَخِيَّ)[٤] فكسر وهذه لحنٌ لم تسمع بها من أحد من العرب

---

(١) ينظر : التهذيب (رهن) ٢٧٥/٦ ، والبحر المحيط ٣٥٥/٢ ، واللسان ، والتاج (رهن).

(٢) ينظر : علل القراءات ١٠١/١ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج ٣٦٧/١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣٤٩/١ .

(٣) إبراهيم : ٢٢ .

(٤) قرأ حمزة – وهو أحد السبعة – بالكسر ، وقرأ الباقون بفتح الياء . ينظر : السبعة ص٣٦٢ ، والتيسير ص١٣٤ ، والمبهج ص٥٧٣ ، والمحتسب ٤٩/٢ ، والبحر ٤١٩/٥.

ولا أهل النحو " [١] .

أرأيت كيف لحَّن هذه القراءة المتواترة لا لشيء ؛ إلا لأنه لم يسمع بها، أي : لم تبلغ علمه عن العرب ، ولم يحكم لها ، أو يُقرّها النحاة بمقاييسهم وقواعدهم ؟! .

وقد تبع معظم النحاة واللغويين الأخفش في تلحين ، أو تضعيف هذه القراءة ؛ كالنحاس الذي يقول عنها : لا تجوز بالإجماع [٢] ، وعدّها أبو عبيدة غلطاً [٣] ، والزّجاج غير جيدة [٤] ، وكذا هي عند أبي منصور الأزهري [٥] ، وحكم عليها الفرّاء بأنها وجه ضعيف [٦] .

وحجتهم في ذلك قانونهم الذي حكّموه على تلك القراءة من واقع بعض لغات العرب وليس كلها .

والذي يقول : إن ياء الإضافة إذا لم يكن قبلها ساكن حركت إلى الفتح ، ويجوز – عندهم – إسكان الياء لثقل التي قبلها كسرة ، فإذا كان قبلها ساكن حُرّكت إلى الفتح لا غير ؛ لأن " أصلها أن تُحرّك ، ولا ساكن قبلها ، فإذا كان قبلها ساكن صارت حركتها لازمة ؛ لالتقاء الساكنين " [٧] .

لكنه ورد عن بعض العرب كسر هذه الياء ، وهي لغة لبني يربوع ، والكسر على أصل التقاء الساكنين ، وسوّغ الكسر مع ثقله على الياء ، أن الياء

---

(١) معاني القرآن ٥٩٩/٢ .
(٢) معاني القرآن للنحاس ٣٦٩/٢ .
(٣) ينظر : البحر المحيط ٤١٩/٥ .
(٤) معاني القرآن وإعرابه ١٥٩/٣ .
(٥) علل القراءات ٢٨٨/١ .
(٦) معاني القرآن للفرّاء ٧٦/٢ .
(٧) ينظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٥٩/٣ ، والبحر ٤١٩/٥ ، والمحتسب ٤٩/٢ .

إذا سكن ما قبلها كانت بمنزلة الحرف الصحيح [١] . وقد أجاز هذه اللغة جملة من أئمة اللغة ؛ كقطرب ، والفرّاء ، وأبي عمرو ابن العلاء [٢] .

وليس المعتبر – في القراءة المتواترة – إجازة هذا لها ، أو منع الآخر ، وإنما القراءة – كما يقول الداني – " إذا ثبتت عندهم لم يردّها قياس عربية ، ولا فشو لغة ؛ لأن القراءة سنة متبعة ، يلزم قبولها ، والمصير إليها " [٣] .

والمثال الأخير الذي نقف عنده فيما يمثّل هذا الموقف هو ما جاء من قراءات في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ ﴾ [٤] . قال الأخفش : " وقد شدّدها قوم فقالوا (إنّ هذان) [٥] ، وهذا لا يكاد يُعرف إلا أنهم يزعمون أن بلحارث بن كعب يجعلون الياء في أشباه هذا ألفاً .. فزعموا أنه على هذه اللغة بالتثقيل تقرأ .

وقال بعضهم : ﴿ إنّ هذين لساحران ﴾ [٦] ، وذلك خلاف

---

(١) ينظر: معاني القرآن للنحاس ٣٦٩/٢ ، وغيث النفع ص٣٦٥ ، وحاشية الصبّان على الأشموني ٢٨٨/٢.

(٢) ينظر : معاني الفرّاء ٧٦/٢ ، والبحر ٤١٩/٥ ، والإتحاف ص٢٧٢ .

(٣) النشر ١٠/١-١١ .

(٤) طه : ٦٣ .

(٥) وهي متواترة – سبعيّة – قرأ بها نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية .
ينظر : السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ ، والمبهج ص٦٣٦ .

(٦) وهي سبعيّة أيضاً قرأ بها أبو عمرو .
ينظر : السبعة ص ٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ ، والمبهج ص ٦٣٦ .
وهناك قراءات أخرى ؛ حيث قرأ ابن كثير (إنْ) خفيفة ، و (هذانّ) بالرفع وتشديد النون .
وقرأ حفص (إنْ هذان) بالتخفيف والرفع . ينظر في المصادر ما سبق .

الكتاب»[١] .

والقراءة الأولى التي هي بالتشديد والرفع التي حكم عليها الأخفش بأنها لا تكاد تُعرف قد نسبها الطبري إلى عامّة قُرّاء الأمصار [٢] ، ونسبها ابن خالويه إلى القُرّاء كلهم عدا قارئين [٣] ، والقرطبي إلى المدنيين والكوفيين [٤] .

والقراءة الأخرى التي هي بالتشديد والنصب ، وهي قراءة أبي عمرو يقول عنها الأزهري : " هي اللغة العالية التي يتكلم بها جماهير العرب .... وكان أبو عمرو يذهب في مخالفة المصحف إلى قول عائشة وعثمان أنه من غلط الكاتب فيه وفي حروف أُخَر " [٥] .

ولست أدري كيف لا يعرف الأخفش هذه القراءة التي هي بتشديد (إنّ) ورفع (هذان) مع أن جُلّ القُرّاء السبعة قرءوا بها ، وكذلك هي موافقة لرسم المصحف ، إضافة إلى موافقتها وجهاً من العربية ، ولغة من لغاتها الفصحى ، فقد اجتمعت فيها شروط القراءة المتواترة لم يندّ منها شيء ؟! .

---

(١) معاني القرآن ٢٩١/١ – ٢٩٢ .

(٢) ينظر : الطبري ١٨٠/١٦ – ١٨٢ بل قال عنها : " إنها الصواب من القراءة في ذلك عندنا ؛ لإجماع الحجّة من القرّاء عليه ، وأنه كذلك في خط المصحف .

(٣) ينظر : حجّة ابن خالويه ص٢١٧ .

(٤) ينظر : الجامع ٢١٦/١١ .

(٥) علل القراءات ٣٨٦/١ ، هذا المروي عن عائشة ، وعثمان يشير به إلى ما روى قتادة عن مضر بن عاصم عن عبدالله بن فطيمة عن يحيى بن عمر قال: في القرآن لحن تقيمه العرب بألسنتها. قال الباقلاني: وهو غاية في الاضطراب والضعف ، وابن فطيمة هذا مجهول، خامل الذكر، لا يقبل خبره .
فأما ما روي على عائشة من قولها: في المصحف خروف لحن من غلط الكاتب، فهو أيضاً غاية في الضعف والاضطراب ، ولو صح لكان خبراً واحداً لا يوجب العلم .
ينظر : الانتصار لنقل القرآن لأبي بكر الباقلاني ص١٢٧ .

ثم إن القراءة الأخرى التي قال عنها : هي خلاف الكتاب ، هي قراءة أبي عمرو الإمام الثقة الثبت في اللغة والقراءة ، وكذلك احتمال الرسم لها ، وليس خلافه ؛ ذلك أن لفظة (هذان) وردت في بعض المصاحف العثمانية مرسومة على هيئة (هذن) [١] من غير ألف ، وهذه الصورة من الرسم حمّالة لقراءات عدة ، منها القراءة بالياء فيها ، وفي غيرها من بعض ألفاظ القرآن الكريم كلفظة (إبراهيم) وصورتها التي هي عليها في الرسم العثماني ، والقراءات الواردة فيها ؛ فكما أن (هذن) تقرأ بالألف ، وهي على هذه الصورة ، فكذلك إمكانية قراءتها بالياء ، وكل ذلك يتوافق مع رسم المصحف.

وقد وجّه أئمة العربية قراءة التشديد والرفع التي لا تكاد تعرف عن الأخفش بتوجيهات كلها قوية وحجة منها :

- أنها لغة لكنانة يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد [٢] ، ونُقل - أيضاً - أنها لغة لبلحارث بن كعب [٣] .

- وقالوا -أيضاً- ههنا (هاء) مضمرة المعنى: أي : إنها هذان لساحران [٤] .

- وقيل : إنها أي : (إنّ) بمعنى (نعم) هذان لساحران . وأن اللام وقعت موقعها ، والمعنى : نعم هذان لهما ساحران ، واستحسن الزّجّاج هذا

---

(١) ينظر : مصحف المدينة على رواية حفص عن عاصم ، ط السعودية سنة ١٤٠٦ هـ سورة طه : ٦٣ .

(٢) ينظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٦٢/٣ ، والمغني في توجيه القراءات العشر المتواترة ٢٤/٣-٢٥.

(٣) نُقل ذلك عن الكسائي كما في معاني القرآن للأخفش ٦٢٩/٢ ، ومعاني القرآن للفرّاء ١٨٤/٢ .

(٤) وهو قول للزجاج - أيضاً - في معانيه ٣٦٢/٣ .

القول، وجوّده، وعلّله بأن فيه إمامين هما : عاصم، والخليل ، وموافقة أُبَيّ [١] .

وهناك أمثلة أخرى غيرها؛ كوصفه اجتماع الهمزتين وتحقيقها في نحو: ﴿ أَإِذَا ﴾ ، و ﴿ أَإِنَّا ﴾ [٢] ، ﴿ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [٣] .... وأشباهها أن " كل هذا ليس من كلام العرب إلا شاذاً ... في هذه اللغة الشاذة القليلة " [٤] .

وهي قراءة متواترة [٥] ومن لغات العرب التي يحتج بها [٦] ،و مع ذلك وصفها بالشذوذ والقلة .

ووصفه كذلك قراءة الخفض في (أرجلكم) من قوله تعالى : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [٧] بأنه هذه القراءة لا يعرفها الناس ... [٨] .

وهي قراءة ابن كثير ، وحمزة ، وأبي عمرو ، وعاصم في رواية [٩] .

وكذلك حكمه على قراءة كلمة (عُزيرٌ) بطرح التنوين من قوله تعالى :

---

(١) ينظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٦٤/٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤٣/٣ ، وحجة القراءات لابن زنجلة ٤٥٤- ٤٥٦ ، وحجة ابن خالويه ص٢٧ .

(٢) من سورة الواقعة آية ٤٧ .

(٣) من سورة البقرة آية ٦ .

(٤) معاني القرآن ١٩٩/١ .

(٥) قرأ بها ابن عامر ، والكسائي ، وعاصم ، حمزة ، كما في السبعة ص٦٣٣، ٦٧٠ ، وحجة الفارسي ص١٨٣ ، وحجة ابن خالويه ص٣١٣ ، والكشف ٧٣/١ ، ٧٤ ، ٧٥ .

(٦) هي لهجة قبائل شرق الجزيرة كتميم ، وعكل ، وأسد ، وعقيل ، وقيس . ينظر : في اللهجات والتراث ٢٥٧- ٢٥٩.

(٧) المائدة : ٦.

(٨) معاني القرآن ٤٦٥/٢ - ٤٦٦ .

(٩) ينظر : السبعة ص٢٤٢ ، والتيسير ص ٩٨ ، والنشر ٢٥٤/٢ ، والإتحاف ١٩٨ .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [١] على أن " ذلك رديء" [٢] .

وهذه القراءة التي حكم عليها بأنها رديئة هي قراءة سبعية متواترة قرأ بها ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة [٣].

وغيرها من الأمثلة [٤] .

بقي أن نشير إلى أن ما أورد الأخفش وغيره من علماء اللغة والنحو هذه الموارد – ربما غير الموافقة للمنهج الأسلم الذي ينبغي أن يكون مع القراءات المتواترة –هو– كما نحسب ونظن – اجتهادهم في تطبيق قوانين اللغة ومقاييسها التي سبق الحديث عنها [٥] على هذا النوع من المنقول والمروي بأعلى درجات الرواية والثبوت ، وإنزالهم ذلك منزلة النصوص الأخرى الأقل في الصحة والفصاحة ؛ كالشعر ، والنثر من موروث العرب الذي فيه العالي ، والأعلى ،و الفصيح ، والأفصح ، وربما الضعيف ، والقليل ، والنادر ، والشاذ ، والمتروك ، وغير العربي .

وممَّا يُتلَمَّس به العُذر لعلماء القرنين الأول والثاني ومنهم الأخفش الذين وقفوا من القراءات المتواترة مثل هذه المواقف غير السديدة : أن اهتمامهم كان موزّعاً على القراءات جميعها قبل أن يقوم ابن مجاهد بتأليف كتابه (السبعة) ، ولم يكن إحلالها مكانة خاصة أمراً موجوداً في ذهن أولئك العلماء في هذه الفترة الزمنية ؛ لكثرة القراءات الصحيحة ، والسبع لا ريب منها ، ولكنها ليست

---

(١) التوبة : ٣٠ .

(٢) معاني القرآن ٥٥٣/٢ .

(٣) ينظر : السبعة ص٣١٣ ، والتيسير ص١١٨ ، والمبهج ص٥١٢ ، والكشف ٥٠١/١.

(٤) ينظر – مثلاً – معاني القرآن للأخفش ١٨٠/١ ، ٢٠٩ ، ٢٤٠ ، ٥٧٠/٢ ، ٧٢٦ .

(٥) في مبحث (شروط القراءة عند الأخفش) مطلع المبحث الثاني من هذا البحث .

الوحيدة في الساحة .

وحين ذاع كتاب ابن مجاهد في الناس اتجهت الأنظار إليه ، ولقي استحساناً وقبولاً لم يظفر به كتاب آخر في فن القراءات ، وكان هذا القبول عاماً عند القُرّاء والمفسرين ، والنحاة ، واللغويين ، والأمة جميعاً .

وقد انعكس هذا على فن توجيه القراءات كله ، فقد كان كثير من المتقدمين – ومنهم الأخفش – لا يأبه لردّ أي قراءة ، ولا يرى في ذلك شيئاً من الحرج ؛ ولكن الأمر قد تغير بعد هذا تجاه القراءات السبع خاصة من حيث العناية والاعتقاد بأنه لا فرق بين القراءة السبعية والقرآن الكريم ؛ وأن الطعن فيها يكاد يكون طعناً في القرآن الكريم ، وكذلك عدم قبول نقدها ولو صدر ذلك النقد عن أعلام اللغة وأساطينها .

إن منهج الأخفش من هذين المنهجين هو المنهج الذي عُرف وساد قبل أن تشتهر القراءات السبع ، أو العشر ، وحتى مصطلحاتها ، وربما تبعه عليه متأخرون حتى بعد اشتهارها ، وعليه فإنه يسهل علينا تفسير ذلك الموقف منه وممن عاصره، وجعله في نصابه الحقيقي [١] وتحت مجهر ميزان العدل .

لا ريب أن التطرف في كل شيء ليس محموداً ؛ فرد القراءة ، ووصمها بالرديئة ، أو الشاذة ، أو المنكرة ، أو التي لا تعرف في العربية ، أو لدى القُرّاء أمرٌ ينبغي التريث عنده قبل الحكم عليه ، وهذا ما كان فاشياً – كما أسلفت – في المتقدمين ومنهم الأخفش .

وبالمقابل فإن جَعْل نقد بعض القراءات السَّبع نقداً للقرآن الكريم ليس على إطلاقه ؛ لأن القراءة إذا استوفت شروطها كانت قرآناً ، وإلا فلا [٢] .

يقول ابن الجزري : " وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن،

---

(١) ينظر : النحو وكتب التفسير ٢/١٠٦٥ – ١٠٦٦ .

(٢) ينظر : إرشاد الفحول ص٢٩ ، فقد تحدّث عن هذه المسألة فأفاد وأجاد .

ولم يكتف فيه بصحة السند ، وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ، وأن ما جاء مجيء الآحاد لا يثبت به قرآن ، وهذا مما لا يخفى ما فيه ؛ فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من الرسم وغيره ، إذا ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله ،وقطع بكونه قرآناً سواء وافق الرسم أو خالفه ، وإذا اشترطنا التواتر في كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم " [1] .

(١) النشر ١/١٣ .

الخاتمـــة

لقد كان كتاب الأخفش (سعيد بن مسعدة) " معاني القرآن " مصدراً رئيساً من مصادر توجيه القراءات وتعليلها من حيث القبول أو الرفض لمن جاء بعده من أهل هذا الفنّ .

ورغم تلك الشروط والضوابط التي اعتمدها الأخفش في قبول القراءات المتواترة ، إلا أنه – ربما – خرج علينا بعدم اعتداده بشيء منها ، أو ردّها ، تارة؛ لعدم موافقتها قراءة العامة أو الأكثرية ، وتارة ؛ لعدم موافقتها وجهاً من العربية يراه هو أو يرجحه ، وثالثة ؛ لمخالفتها رسم الكتاب ، أو ما اشتهر منه ، فحين يقوي شيء من ذلك – عنده – تترجح لديه تلك القراءة ، أو يردّها .

إن المستطلع لآراء الأخفش في هذا الجانب قد لا يستظهر أنه اتبع خطة واضحة في رسم الحدود الفاصلة بين أصوله التي يحتكم إليها في قبول القراءة أو ردّها ؛ فهو تارة يُضعف القراءة لمخالفتها العربية ، وأخرى يقبلها وإن لم توافق المشهور من القاعدة اللغوية ، محتجاً بقراءة العامة أو الأكثرية لها ، أو توافقها مع رسم المصحف ، وإن كان الأغلب عليه – كما مرّ في ثنايا البحث – أنه يُغلّب جانبي كثرة القرّاء ، ورسم المصحف ، لكن ليس ذلك بالاطراد .

وهذا الخلل المنهجي ، والتناقض – ربما – في المواقف نابع – في نظري– من أحد أمرين :

أحدهما : ما اكتنف مصطلح التواتر في بداية الأمر من الغموض من حيث الشروط ، أو تحديد المعنى ، أو النوع ، أو القارئ ؛ إذ لم يشع وقتها تسبيع القراءات ، أو تعشيرها ، أو نحو ذلك ؛ فكلها قراءات تخضع لمقاييس تلك الشروط حتى تقبل أو تُردّ .

الثاني : وهو الأخطر – في نظري – الانسياق وراء خلل منهجي اعتمده النحاة أدّى بهم إلى الوقوع في مزلق خطير ، وهو إنزال النص القرآني

الكريم الذي هو أعلى درجات الفصيح ، قد سلم من التحريف والتصحيف ، ويقاس عليه قراءاته المتواترة ، أنزلوه منزلة النظام اللغوي العام في تقعيداتهم ، ومقاييسهم - ربما - العقلية ، ومناهجهم المنطقية ؛ فنرى أحدهم قد يستشهد ببيت من الشعر يُجهل قائله ، أو بجزء من بيت لا تُعرف تتمّته ، ويغفل ، أو يضعف ، أو يردّ قراءة ثابتة .

وبالجملة فإن مذهب الأخفش وموقفه تجاه القراءات المتواترة كان متبايناً، يؤدي بالقاريء إلى الحيرة والدهشة ؛ فهو تارة ينكر ؛ بل يشدد النكير على من خطّأ ، أو ضعّف قراءة متواترة ، وأخرى قد يلحّن ، أو ينكر ، أو يُضعّف قراءة متواترة أيضاً .

وقد تراه يميل إلى مذهب البصريين ، وهو منهم من القراءات ؛ حيث إن لهم قراءة يقيسون فيها على ركن صحتها في العربية بما يوافق مذهبهم أكثر من قياسهم فيه على الركنين الآخرين ، وهم : موافقتها لرسم المصحف ، وصحة سندها .

وفي مواضع أخرى يناقض هذا المذهب ؛ فيقدم القراءة المطابقة لرسم المصحف ، أو التي صح سندها وكثر قراؤها ، وإن كانت على غير المشهور من العربية في مذهب البصريين ، ممّا يدل على أنه ربما اجتهد بآراء تخالف آراء مدرسته التي هو منها .

إلا أنه - في الغالب - يطغى عليه المنهج اللغوي في قبول القراءة أو ردّها ، وليس المنهج المُقدَّم لدى القُرّاء ، والذي يقول عنه أبو عمرو الداني : " وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية ؛ بل على الأثبت في الأثر ، والأصح في النقل .

والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردها قياس عربية ، ولا فشوّ لغة ؛ لأن

القراءة سنّة متبعة يلزم قبولها ، والمصير إليها " [١] .

فلا يجوز - عند أئمة القراءة - وحُق لهم - أن تردّ قراءة متواترة ، أو توصف بما لا يتناسب مع قدرها ، أو قدر رواتها .

يقول أبو نصر القُشيري : " فما ثبت بالتواتر عن النبي ﷺ فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ ، أو قبيح ورديء ؛ بل في القرآن فصيح ، وفيه ماهوأفصح منه ... " [٢].

ومهما يكن من خلاف بين مواقف أهل اللغة وأرباب القراءات ، أو من جمعوا بين المنهجين ؛ سواء أكان الخلاف جوهرياً أم منهجياً ؟ ! فإن الذي لا يمكن قبوله بحال من الأحوال أن يَعْمِدَ أحد من أولئك - خاصة اللغويين منهم- إلى تخطئة ما تواتر من القراءات ، أو تلحينها بمقاييس لغوية قد رُسمت وحُدّدت من قبل ، ثم طُوّع لها ما خرج منها ، أو ندّ عنها ؛ فاحتجوا لها بالنحو وشواهده " وهذا عكس للوضع الصحيح ؛ إذ السلامة في المنهج ، والسداد في المنطق العلمي يقتضيان بأن يحتج للنحو ومذاهبه ، وشواهده بهذه القراءات المتواترة ؛ لما يتوافر لها من الضبط ، والوثوق ، والدقّة ، والتحري ، وهو شيء لم يتوفر بعضه لأوثق شواهد النحو " .

ومهما يقال في اختلاف درجات تلك القراءات ، فإن أقلها درجة - عدا الموضوعة منها - هي - بالطبع - أقوى سنداً ، وأوثق رواية من غيرها من الشواهد الأخرى التي بنى عليها النحاة واللغويون كثيراً من قواعدهم النحوية ، وأصولهم اللغوية .

---

(١) النشر ١/١٠-١١ .

(٢) خزانة الأدب ٢/٢٥٩ ، والقشيري هذا هو : عبدالرحيم بن عبدالكريم أبو نصر القُشيري ، فقيه ، أصولي ، مفسر ، توفي سنة ٥١٤هـ . ينظر : هدية العارفين ١/٥٥٩ ، ومعجم المؤلفين ٥/٢٠٧ .

وعليه ؛ فإنه يجب البعد عن الأحكام القاطعة في المسائل -خاصة القراءات- التي لا تقبل بطبيعتها القطع أو الجزم ؛ وذلك لقيامها على ركن الرواية والسماع، واللغة - كما هو معلوم - رواياتها كثيرة ، وطرقها متعددة ، لا يحيط بها بشر .

ومن رام السلامة ؛ فليعمد إلى منهج يقوم على جواز الترجيح بين القراءات القرآنية ؛ إذ فيها - كما قال القُشيري - الفصيح والأفصح .

وذلك بتحكيم أساليب العرب المتنوعة ، وموازين المعنى ، وقبله صحة الرواية وثبوتها بالسند المتصل إلى النبي ﷺ ويقوم - أيضاً - على رفض أي حكم باللّحن ، أو الخطأ على قراءة مهما بلغت درجتها - فضلاً عن القراءة المتواترة - لأنها في أقل أحوالها شاهد نطق به فصيح .

المصادر والمراجع

١ - الإبانة عن معاني القراءات ، لمكي بن أبي طالب ، تحقيق : د . عبدالفتاح شلبي ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر .

٢ - إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، لأحمد الدمياطي البناء، تحقيق : علي الضباع ، دار الندوة الجديدة ، بيروت .

٣ - الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط ثالثة ، ١٩٥١م .

٤ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد بن علي الشوكاني، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط١ ، ١٣٥٦هـ .

٥ - إعراب القرآن ، لأبي جعفر النحاس ، تحقيق : د . زهير غازي زاهد ، عالم الكتب ، طبعة ثانية ، ١٤٠٥هـ.

٦ - إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات ، للعكبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ، ١٣٩٩هـ.

٧ - إنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٣٧١هـ.

٨ - الانتصار لنقل القرآن ، لأبي بكر الباقلاني .

٩ - الإنصاف في مسائل الخلاف ، لأبي البركات ابن الأنباري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٣ ، ١٣٧٤ هـ ، مطبعة السعادة ، مصر .

١٠ - البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة ثانية ، ١٣٩٨هـ.

١١ - البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ، لعبد الفتاح القاضي ، ط١، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠١ هـ.

١٢ - البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ، طبعة عيسى الحلبي ، ط ثانية ، ١٩٧٢م .

١٣ - البلغة في تراجم أئمة اللغة، للفيروزآبادي، الكويت، ط أولى، ١٤٠٧هـ.

١٤ - تاريخ التراث العربي د . فؤاد سزكين ، ترجمة د . فهمي أبو الفضل ، ود. محمود فهمي حجازي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١م.

١٥ - تاريخ العلماء النحويين ، للمفضل بن محمد التنوخي ، تحقيق : د . عبدالفتاح الحلو ، الرياض ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المجلس العلمي ، ١٤٠١ هـ.

١٦ - تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي ، بيروت ، دار الكتاب العربي .

١٧ - التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان ، تأليف : طاهر الجزائري، عناية: عبدالفتاح أبوغدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب.

١٨ - تهذيب اللغة ، لأبي منصور الأزهري ، تحقيق : مجموعة من الباحثين، ١٣٨٤هـ- ١٣٨٧هـ .

١٩ - جامع البيان في تفسير القرآن ، للطبري ، بيروت ، دار المعرفة ، ط ثانية ، ١٩٧٢م .

٢٠ - الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، تحقيق : أحمد عبدالعليم البردوني ، دار الكتب المصرية ، ١٣٧٣هـ .

٢١ - حاشية محمد علي الصبّان على شرح محمد الأشموني لألفية ابن مالك ، بيروت ، دار الفكر .

٢٢ - حجة القراءات ، لابن زنجلة ، تحقيق : سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، طبعة رابعة ، ١٤٠٤ هـ.

٢٣ - الحجة في القراءات السبع ، لابن خالويه ، تحقيق : د . عبدالعال سالم مكرم ، ١٩٧١م ، دار الشروق ، بيروت .

٢٤ - الحجة للقراء السبعة ، لأبي علي الفارسي ، تحقيق : بدر الدين قهوجي ، وبشير حويجاتي، دار المأمون للتراث، دمشق، طبعة أولى، ١٤٠٤ هـ.

٢٥ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبدالقادر البغدادي ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، الهيئة العامة للكتاب ، طبعة ثانية ، ١٩٧٩م .

٢٦ - السبعة في القراءات ، لابن مجاهد ، تحقيق : د . شوقي ضيف ، دار المعارف بالقاهرة ، طبعة ثالثة .

٢٧ - سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ .

٢٨ - الصحاح، للجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطاء، ط ثانية ١٣٩٩هـ.

٢٩ - صحيح الإمام البخاري ، عن مجموع الكتب الستة ، نشر : شعبان قورت، دار الدعوة .

٣٠ - صحيح الإمام مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، ط ثانية ، ١٩٧٢م، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٣١ - علل القراءات ، لأبي منصور الأزهري ، تحقيق : نوال الحلوة ، طبعة أولى، ١٤١٢ هـ.

٣٢ - غاية النهاية في طبقات القراء ، لابن الجزري ، تحقيق : برجشتراسر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ثالثة ، ١٤٠٢هـ.

٣٣ - غيث النفع في القراءات السبع ، تأليف : علي النوري الصفاقسي ، طبع بذيل كتاب : سراج القارئ المبتدئ ، مراجعة : محمد الضباع ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ.

٣٤ - القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، ط المطبعة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٥م.

٣٥ - القراءات القرآنية ، تاريخ وتعريف ، د . عبدالهادي الفضلي ، بيروت ، دار القلم ، طبعة ثانية ، ١٩٨٠ .

٣٦ - القراءات وأثرها في علوم العربية ، د . محمد سالم محيسن ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٤٠٤هـ.

٣٧ - كتاب سيبويه ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، بيروت ، عالم الكتب ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ .

٣٨ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، للزمخشري ، تحقيق : مصطفى حسين أحمد ، دار الريان ، القاهرة ، طبعة ثالثة ، ١٤٠٧هـ.

٣٩ - كشف الأسرار عن أصول البزدوي ، تأليف : علاء الدين بن أحمد البخاري ، بيروت ، دار الكتاب العربية ، ١٣٩٤ هـ .

٤٠ - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، لمكي بن أبي طالب تحقيق : د . محي الدين رمضان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طبعة رابعة ، ١٤٠٧هـ.

٤١ - لسان العرب ، لابن منظور ، بيروت ، دار صادر .

٤٢ - لطائف الإشارات لفنون القراءات ، لشهاب الدين القسطلاني ، تحقيق : عامر السيد عثمان ، ود . عبدالصبور شاهين ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٣٩٢هـ.

٤٣ - اللهجات العربية في التراث ، د . أحمد علم الدين الجندي ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٦٥م ، القاهرة .

٤٤ - المبسوط في القراءات العشر ، لأبي بكر أحمد بن الحسين الأصبهاني ، تحقيق : سبيع حمزة حاكمي ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، ودار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة ، طبعة ثانية ، ١٤٠٨هـ.

٤٥ - المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جني ، تحقيق : علي النجدي ناصف ورفاقه ، دار سزكين للطباعة والنشر ، طبعة ثانية ، ١٤٠٦هـ.

٤٦ - مختصر في شواذ القرآن ، لابن خالويه ، نشره : براجشتراسر ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ١٩٣٤م .

٤٧ - مختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ط١ ، ١٣١٦هـ.

٤٨ - المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ، تأليف : أبي شامة المقدسي ، تحقيق : طيار آلي قولاج ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٥م.

٤٩ - معاني القرآن ، لأبي جعفر النحاس ، تحقيق : محمد علي الصابوني ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، طبعة أولى ، ١٤١٢ هـ .

٥٠ - معاني القرآن ، للفراء ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار ، دار السرور ، بيروت .

٥١ - معاني القرآن وإعرابه ، لأبي إسحاق الزجاج ، تحقيق : د . عبدالجليل شلبي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ.

٥٢ - معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٥٣ - معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار،للذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طبعة ثانية ، ١٤٠٨هـ.

٥٤ - المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة ، د . محمد سالم محيسن ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ ، دار الجيل ، بيروت .

٥٥ - منجد المقرئين ، لابن الجزري ، تحقيق د : عبدالحي الفرماوي ، القاهرة ، مكتبة جمهورية مصر ، ١٩٧٧م .

٥٦ - النحو وكتب التفسير ، لـ د . إبراهيم رفيدة ، الدار الجماهرية للنشر ، ليبيا ، طبعة ثالثة ، ١٩٩٠م .

٥٧ - النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تحقيق : محمد أحمد دهمان، دمشق ، مطبعة التوفيق ، ١٣٤٥هـ.

٥٨ - هدية العارفين ، لإسماعيل البغدادي استنابول ، ١٩٥١م.

٥٩ - وفيات الأعيان وأنباه أبناء الزمان ، للقاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ، تحقيق : محمد محيي الدن عبدالحميد ، ط١ ، القاهرة ، ١٣٧٦هـ .